فضل العربية

كتب مستشار معارف مصر فصلاً شرح فيه اللغة العربية من مزاياها نُشر في آخر تقرير عميد الاحتلال عن السنة الماضية قال فيه : ان تعليم العلوم بالانكليزية في المدارس الاميرية بمصر لا مناص منه الآن لعدم وجود الكتب اللازمة والاساتذة الاكفاء لان اللغة العربية فقيرة في تركيب الجمل العلمية وبالنظر لجمودها والتباس تراكيبها لا تستطيع ان تكون لسان حال العلم والتدريس وانه ليس فيها شيء من روح الادبيات الحديثة وان احسن الترجمات لا تتوصل الى نقل فكر المؤلف الا مشوهاً اذا ارادت نظارة المعارف ان تعتمد على ما يترجم من اصناف العلوم الى العربية وقد وقع كلامه موقعاً سيئاً في نفوس العارفين بخصائص العربية ولما كان اكثر ما كتبه مما له دخل بسياسة هذا القطر رأينا ان ننقل للقراء زبدة ما ساجلناه به ثم نردف ذلك بفصل في فضل اللغة (١) لاحد علماء المئة الخامسة .

فقد قلنا ان لغة في معاجمها المطبوعة ثمانون الف مادة وكل مادة يشتق منها عشر الفاظ هي بلا شك من اللغات الواسعة وقد وسعت العلوم في العصر الذي لم تكن تستبر فيه لغة علم اي في عهد المأمون العباسي وبعده فنقلت اليها علوم الفرس واليونان والرومان والهند في وقت كانت لغة بدوية فكيف لا يتسع صدرها لهذه العلوم الآن وهي لغة علم منذ الف سنة هذا مع ان بعض العلوم من اختراع العرب كالجبر مثلاً فانهم وضعوا قواعده ودوّنوا كتبه ونقله الاوربيون عن العرب فاللغة التي اخترع بها ودوّن بها ودرس بها لا تضيق عنه اليوم وهي هي وهو هو . ولا تزال العلوم الرياضية هي اباها منذ اوائل نشأتها وان زادت بعض نظريات او تمرينات فالكتب المؤلفة كافلة لتدريسها اما العلوم الطبيعية فان ما يدرس في المدارس لا يتجاوز ما وضع له من الكتب بالعربية في القرن الماضي وتسهل زيادة ما زاد منها وتعريب ما يصدر منها الحين بعد الآخر في بلاد الغرب . واستشهدنا له بقول احد رجال الفرنسيس الذي نصح للمصريين ان يحتفظوا بلغتهم ويتعلموا احدى اللغات الاجنبية معها كما فعل المجر والتشك والبولونيون ولا غنية للانسان الآن عن تعلم عدة لغات اجنبية هذا فضلاً عن لغة واحدة كالانكليزية او الافرنسية او الالمانية .

---

(١) نشرنا في جريدة المؤيد ثلاث مقالات في هذا المعنى وقد استخرج هذا الفصل من كتاب سرّ الفصاحة لابي محمد عبدالله بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦ الشيخ احمد عمر المحصاني الازهري

اما الفصل في فضل العربية فها هو بنصه : اللغة عبارة عما يتواضع القوم بينهم به من الكلام او يكون توقيفاً يقال في لغة العرب ان السيف القاطع حسام اي تواضعوا على ان سموه هذا الاسم وتجمع لغة على لُغَات ولُغِين ولُغُون وقد قيل في اشتقاقها انها مشتقة من قولهم لغبت بالشيء اذا اولعت به واغريت به وقيل بل هي مشتقة من اللغو وهو النطق ومنه قولهم سمعت لواغي الناس اي اصواتهم ولغوت اي تكلمت واصلها على هذا لغوة على مثال فُعلة (الى ان يقول في فضيلة اللغة العربية ومزيتها) : فاما ما نحن بصدده من ذكر اللغة العربية فلا خفاء بمزيتها على جميع اللغات وفضلها اما السعة فالامر فيها واضح . ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد على ان اللغة الرومية بالضد فان الاسم الواحد وجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً وقد كان بعض اللغويين حصر اسماء الاسد في لغة العرب فكانت اوراقاً عدة . وهي مع هذه السعة والكثرة اخصر اللغات في ايصال المعاني في النقل اليها يبين ذلك انه ليس كلام ينقل الى لغة العرب الا ويجيء الثاني اخصر من الاول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها وهذه بلاشك فضيلة مشهورة وميزة كبيرة لان الغرض في الكلام ووضع اللغات بيان المعاني وكشفها واذا كانت لغة تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقتصار فهي اولى بالاستعمال وافضل مما يحتاج فيه الى الاسهاب والاطالة . وقد خبرني ابوداود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السرياني قبحت واذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسناً . وهذا الذي ذكره صحيح يخبر به اهل كل لغة عن لغتهم مع العربية . وقد حُكي ان بعض ملوك الروم واظنه تيفور سأل عن شعر المتنبي فأُنشد له

كأن العيس كانت فوق جفني مناخات فلما ثرن سالا

وفسر له بالرومية فلم يعجبه وقال كلاماً معناه ما اكذب هذا الرجل كيف يمكن ان يكون جمل على عين انسان . وما احسب ان العلة فيما ذكرته غير النقل الى اللغة العربية ومنها وتباين ذلك الا ان لغتنا فيها من الاستعارات والالفاظ الحسنة الموضوعة ماليس مثله في غيرها من اللغات فاذا نقلت لم يجد الناقل ما يتوصل به الى نقل تلك الالفاظ المستعارة بعينها وهي على هيئتها لتعذر مثلها في اللغة التي ينقل اليها والمعاني لا تتغير فنقلها ممكن من تبديل وكان ما ينقل من العربية فتغير حسنه لهذه العلة وما ينقل اليها يمكن الزيادة على طلاوته لان ناقله يجد ما يعبر به في العربية افضل مما يريد وابلغ مما يحاول وهذا وجه يمكن ذكر مثله ويجب ان يتأمل وينظر فيه لاني لا اعرف لغة سوى العربية انما ذهبت اليه ظناً

وحدسًا . وقد تصرف في هذه اللغة فاتم اخذته تصرف في غيرها من اللغات فلم توجد الاَّ طيعةً عذبة في كل ما استعملت فيه نظمًا ونثرًا وهي الى الآن لا تقف على غاية في ذلك ولا تصل الى نهاية كما قال ابو تمام في هذا المعنى * اذا انجلت سحائب منه اعقبت بسحائب * وقد بينت فضلها وما فيها من الاختصار في العبارة عن المعاني وذكرت وجه التفضيل بالاختصار مما لا شبهة فيه . فاما السعة فالامر فيها ايضًا واضح لان الناظم والناثر اذا حظر عليه موضع ايراد لفظة وكانت اللغة التي ينسج منها ذات الفاظ كثيرة تقع موقع تلك اللفظة في المعنى اخذ ما يليق بالموضع من غير عنت ولا مشقة . وهذا غير ممكن لولا السعة في كثرة الاسماء المسمى الواحد وتلك فائدة حاصلة بلا خلاف على انه ربما عرض في وضع الاسماء المشتركة فائدة في بعض المواضع مثل ان يحتاج الناطق الى كلام يؤثر ان يكني فيه ولا يصرح فيقول لفظة ويوهم بها معنى قد قصد غيره وهذا وان قل الداعي اليه الاَّ في اليسير من المواضع فلم تجعل اللغة العربية خالية منه بل فيها اسماء مشتركة كقولهم عين وما اشبهها . وهاهنا لها فضيلة اخرى وهي ان الواضع لما ان كانت مواضعة تجنب في الاكثر كل ما يثقل على الناطق تكلفه والتلفظ به كالجمع بين الحروف المتقاربة في المخارج وما اشبه ذلك واعتمد مثل هذا في الحركات ايضًا فلم يأت الاَّ بالسهل الممكن دون الوعر المتعب ومتى تأملت الالفاظ المستعملة لم تجد العلة في اهمالها الا هذا المعنى وليس غيرها من اللغات كذلك كلغة الارمن والزنج وغيرهم

ومما يدل على فضل هذه اللغة العربية وتقدمها على جميع اللغات ان اربابها واصحابها وهم العرب الذين لا امة من الامم تنازعهم فضائلهم ولا تباريهم في مناقبهم ومحاسنهم وان كانوا تواضعوا على هذه اللغة فلم تكن لتنتج اذهانهم الصقيلة وخواطرهم النجيبة الاَّ شيئًا خليقًا بالشرف وامرا جديرًا بالتقدم وان كان توفيقًا من الله تعالى لهم ومنة منَّ بها عليهم اه

وقال ابن حزم(١) : لا ننكر اصطلاح الناس على احداث لغات شتى بعد ان كانت لغة واحدة وقفوا عليها بها علموا ماهية الاشياء وكيفياتها وحدودها ولا ندري اي لغة هي التي وقف آدم عليه السلام عليها اولاً الا اننا نقطع على انها اتمّ اللغات كلها وابينها عبارة واقلها اشكالاً واشدها اختصارًا واكثرها وقوع اسماء مختلفة على المسميات كلها المختلفة من كل ما في العالم من جوهر او عرض لقول الله عز وجلّ وعلم آدم الاسماء كلها فبهذا التأكيد يرفع الاشكال ويقطع الشغب فيما قلناه وقد قال قوم هي السريانية وقال قوم هي العبرانية

(١) منقولة من كتاب الإحكام في اصول الأحكام وهو من المخطوطات المحفوظة في خزانة كتب السيد احمد بك الحسيني

رتأل قوم في العربية والله اعلم الآن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً ان السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن اهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نغمة اهل القيروان ومن القيرواني اذا رام نغمة الاندلسي ومن الخراساني اذا رام نغمتهما ونحن نجد من سمع لغة اهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد ان يقول انها لغة اخرى غير لغة اهل قرطبة وهكذا في كثير من البلاد فانه بمجاورة اهل البلدة لاخرى يتبدل لغتها تبدلاً لا يخفى على من تأمله ونحن نجد العامة قد بدلت الالفاظ في اللغة العربية تبديلاً وهو في البعد عن اصل تلك الكلمة كلغة اخرى ولا فرق فتجدهم يقولون في العنب العينب وفي السوط إسطوط وفي ثلاثة دنانير ثلثدا واذا تعرب البربري فاراد ان يقول الشجرة قال السجرة واذا تعرب الجليقي ابدل من العين والحاء هاء فيقول مهمد اذا اراد ان يقول محمد ومثل هذا كثير فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ايقن ان اختلافها انما هو من نحو ما ذكرنا من تبدل ألفاظ الناس على طول الازمان واختلاف البلدان لمجاورة الأمم وانها لغة واحدة في الاصل واذ قد تيقنا ذلك فالسريانية اصل للعربية وللعبرانية معاً والمستفيض ان اول من تكلم بهذه العربية اسمعيل عليه السلام فهي لغة ولده والعبرانية لغة اسحق ولغة ولده والسريانية بلا شك هي كانت لغة ابراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم بنقل الاستفاضة الموجب لصحة العلم والسريانيه اصل لها وقد قال قوم ان اليونانية ابسط اللغات ولعل هذا انما هو الآن فان اللغة يسقط اكثرها وتبطل بسقوط دولة اهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم او بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم فانما يقيد لغة الامة وعلومها واخبارها قوة دولتها ونشاط اهلها وفراغهم واما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واستغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة اعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان انسابهم واخبارهم ويبود علومهم هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة ولدولة السريانيين مذ ذهبت وبادت آلاف من الاعوام في اقل منها ينسى جميع اللغة فكيف لغلت اكثرها والله اعلم .